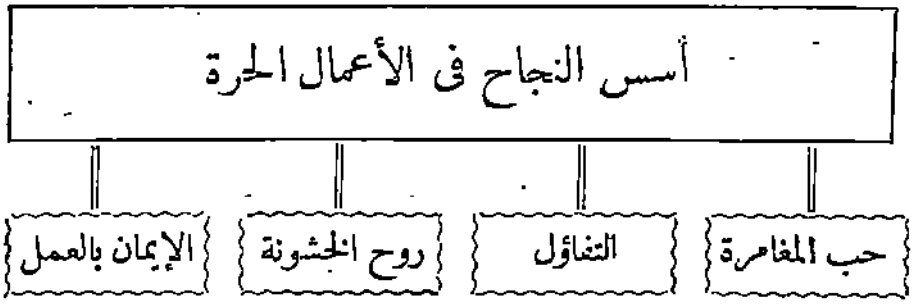

جلست نصف ساعة إلى تاجر ناجح، رأس ماله الحاضر حوالى مائة ألف جنيه ، وقد خسر رأس ماله كله ثلاث مرات ؛ ثم استرده ثلاث مرات ولا يزال يعدّ نفسه للكسب وللخسارة حسب الأحوال .

وقد خرجت من هـذه الجلسة بمعلومات نافعة ثمينة آثرت أن أضعها بين يدى شبابنا الذين يهمون باقتحام هذا الميدان .

حب المغامرة :

عرفت أن أساس النجاح فى الأعمال الحرة أن يكون فى النفس جانب من حب المغامرة والارتياح إلى التجربة والاستعداد للنهوض بعد كل عثرة بنفس الهمة ونفس الرغبة، وهذا ممكن إذا ما اعتبر الإنسان كل تجربة تمرّ به شيئا يفيده ، شيئا ذا قيمة لا يضيره أن يؤدى ثمنه، ثم يبدأ الحياة بعده من جديد وهو أبعد نظرا وأنضج إدراكا وأعرف بمواطن الزلل.

وهذه الميزة تظهر فى الشاب الأمريكى بأقوى مما تظهر فى شباب العالم . فالامريكى حتى فى سـن الشيخوخة على استعداد لأن يبدأ حياته من جديد كلما خسر ثروته أو عمله ، ولا يعز على نفسه أن يكون اليوم من أصحاب الملايين ثم يكون فى الغد مفلسا، فيعود عاملا صغيرا فى المعامل التى كان أكبر المساهمين فيها ، فهو يحيا عدة مرات لا مرة واحدة .

وعيبنا الأصلى هنا أننا نحيا مرة واحدة ، فإما أن نجح على طول الخـط ، وإما أن نفشل فنخسر الحياة ، ولا نستطيع ابتداء الشوط من جديد . وإنه ليعز علينا أن يرانا النـاس فى مركز أقل مما كنا نشغل ، أو فى عمل أدنى مما كنا نعمل . واهتمامنا بالناس وبما يقال عنا يقعدنا فى أغلب الأحيان عن المحاولة الثانية. فما إن نعثر حتى نلتصق بالأرض ولا نحاول النهوض من جديد ، ولو حاولنا لوجدنا أننا نستطيع .

فاذا استطعنا أن نبث فى شعور الشبان حب المغامرة، فإننا نمدهم بعامل جديد من عوامل النهوض بعد العثار ، إذ تصبح المحاولة تلبية لشعور المغامرة ، الذى يدعو صاحبه لأن يحاول مرة أخرى كلما فشلت المحاولة الأولى ، لا على أمل الكسب وحده ، بل ترضية لشعور المغامرة ولذة المغامرة .

وقصص "السندباد البحرى" تمثل روح المغامرة أوضح تمثيل . فقد كان "السندباد" يلاقى الأهوال فى كل سفرة حتى ينجو أخيرا من المهالك وقد خسر تجارته ورأس ماله فى الغالب ، ثم يتجر فيثرى ويغنى ولكن حب السفر والرغبة فى المغامرة يوسوسان له من جديد ، فيركب البحر من جديد ، ويسلم نفسه للأهوال لأنه مشغوف بالأهوال !

نريد قبسا من روح "السندباد" فى نفس كل شاب وكل رجل حتى لا يختم حياته بعد التجربة الأولى ولا يطوى دفاتره ويأس من النجاح فى الجولة الثانية .

التفاؤل :

وهنا يأتى الكلام على التفاؤل . فاليأس والتشاؤم يقعدان بالهمة عن المحاولة الثانية ، ولا بد من قبس مضىء فى الأفق يهتدى به السالك فى الطريق . والتفاؤل مزاج ولكن يمكن تربيته بالعادة ، وتلك مهمة التربية المنزلية والمدرسية . على أن الإنسان يستطيع أن يعالجه فى نفسه إذا فاته ذلك فى البيت والمدرسة . ويخطئ من يفهم أن التعلم والتعود يقفان عند حد معين من العمر ، ففى كل سن مع شىء من الارادة يستطيع الفرد أن يربى نفسه وأن يتكيف حسب الظروف والأحوال وفى الأمثال يقولون : "من لا تربيه أمه وأبوه ، تربيه الأيام والليالى" وليست تربية الأيام والليالى إلا تربية الإنسان لنفسه ، ومعالجته لما فيه من عيوب على ضوء التجارب التى يلقاها ، والظروف التى يصادفها .

والتفاؤل عادة — كما قلنا — وان كانت له علاقة بالمزاج ، فعلى الشاب المصرى أن ينمى هذا الشعور فى نفسه ، وأن يجرب أثره فى المحاولة الثانية والثالثة ، فإن النجاح نفسه يغرى بالتفاؤل كما أن التفاؤل يؤدى إلى النجاح والعكس بالعكس فى التشاؤم والفشل فإنهما يتبادلان التأثر .

روح الخشونة :

ومما يساعد على اقتحام الحياة من جديد ، بجانب حب المغامرة والتفاؤل ، ألا يستسلم الإنسان للترف ، وألا يغير مستوى معيشته بمعدل ارتفاع ثروته ، وقد كان مما قاله لى هذا التاجر المكافح : " إننى لم أتأثر كثيرا بضياع ثروتى فى المرات التى ضاعت فيها ، فأنا كما ترانى أعيش عيشة بسيطة فى هذا الحى (الحى الحسينى) وفى هذه الدار التى تراها ، وطعامى وشرابى وملبسى وعاداتى لا تتغير كثيرا سواء افتقرت أم اغتنيت ، وقد خسرت مرة ستين ألف جنيه هى كل رأس مالى فلم أشعر أننى مضطر للنزول عن مستوى معين من المعيشة والمظاهر ، ولهذا كان معنى ضياع رأس مالى هو ضياع مبلغ من المال ، لا تحطيم حياة ، ولا انقلاب معيشة ، ولا نزلا من شاهق إلى أسفل سافلين ."

وهذه كلمات ثمينة ولقد استمعت إليها بإصغاء واهتمام وتقدير ، فالواقع أن أهم ما يؤذينا عند ما نفقد عملا أو ثروة ، ليس ضياع العمل أو الثروة ، إنما هو الاثار المترتبة

على هذا الضياع ، وأهمها النزول عن مستوى معين من المعيشة ، والتخلى عن نوع خاص من المظاهر ، والاضطرار لترك عادات خاصة واتباع عادات أخرى لا تكون على استعداد لها بعد تقدم السن .

وعند ما كان هذا الرجل الناجح المكافح يلقى هذه الكلمات فى بساطة — كبساطة مظهره وحياته — كانت ذاكرتى تنازعنى إلى الحديث الشريف : "اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم".

وهذا "الاخشيشان" ألزم ما يكون للكافحين فى ميدان العمل الحر ، المعرض للكسب والخسارة والصعود والهبوط ، والثروة المفاجئة والافلاس المفاجئ ، وفى هذا التغير لذة ولا شك ، ولكنها تصبح مريرة مؤلمة إذا كان هذا التغير يؤثر فى مستوى الحياة الناعمة التى اعتدناها فى عهد الرخاء .

الإيمان بالعمل :

وخلة رابعة تساعد على النهوض بعد العثار ، تلك هى الإيمان بالعمل ، والشعور بأن الانسان خلق ليعمل فإذا فشل فهو مطالب بأن يعمل من جديد ، والواقع أن الإيمان بالعمل ينقص الكثيرين منا ، فهم يعتقدون أن الحاجة وحدها هى التى تدفع الإنسان إلى العمل ، فأما صاحب الثروة فغير مطالب بأن يعمل شيئا ، وهؤلاء هم الذين سماهم مرة روبرت مورليسون وزير الداخلية الانجليزية "صنف الأغنياء المتعطلين" والذين نسميهم نحن فى مصر "أولاد الذوات" !

وكلمة "أولاد الذوات" هذه رمز لمن لا يؤدون عملا نافعا ، فهى تنطبق على كل من لا يستحق اللقمة التى يأكلها ، لأنه لا يؤدى نظيرها شيئا ، والشعور الذى ينقص هؤلاء هو شعور الإيمان بالعمل وبقداسة العمل . وهذا الشعور ليس وقفا على الأغنياء المتعطلين ، فكثير من الفقراء الذين يعملون يتمنون لو يستريحون من العمل ولو يأتيهم رزقهم رغدا وهم جلوس . وهذا التمنى دليل على أن مرض "أولاد الذوات" كامن فى نفوسهم ولو كانوا فقراء !

فعلينا أن نغرس حب العمل والإيمان به فى نفوس الأطفال والشبان ، وأن نزدرى من لا يعمل ولو كان أغنى الأغنياء . والدين والمأثورات والمثل العليا جميعها قديما وحديثا تؤيدنا فى هذا المجال .

* * *

هذه خواطر متناثرة أو ثمرات مقطوفة من حقل التجارب لرجل ناجح مغامر مكافح ؛ يثق بالله ويتفاءل بالمستقبل ، ويؤمن بالعمل . وهى ثمرات نافعة لشبان الجيل الذين تفوتهم الفرص الكثيرة ، لأنهم يهابون المغامرة فى العمل الحر ، فإذا غامروا مرة وخسروا تشاءموا وعجزوا عن استئناف الحياة لأنهم لا يثقون بأنفسهم ، ولا يؤمنون بالعمل ، ولا يتذوقون طعم المغامرة والكفاح وهو طعم لذيذ مرىء لمن يتذوقون !